النشاط الثقافي في الغرب

الاتحاد السوفياتي

نظرة في الادب السوفياتي الحديث

***

فتحت ثورة اكتوبر الإشتراكية العظيمة طريقا جديدا في تاريخ البشرية ، ووضعت بداية البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، وانتزعت من البورجوازية وطبقة الملاك المصانع ، والمعامل ، والمصارف ، والاراضي ، ونقلت ملكيتها الى الشعب ، وثبتت دكتاتورية الطبقة العاملة ، وأقامت نموذجا جديدا للدولة ، وهي الدولة الاشتراكية السوفياتية القائدة للقوى التي تركزت في الطبقة العاملة .

وتعتبر ثورة اكتوبر نقطة تحول في تطوير الثقافة الانسانية ، فقد نجحت في أن تجعل الثقافة ملكا لجماهير الشعب ، وحررت القوى الفردية المبدعة ، وخلقت الظروف الضرورية لازدهار المواهب الشعبية .

والادب السوفياتي وليد الثورة ، وهو مرحلة جديدة من مراحل التطور الرائد للادب الانساني ، وهذا الادب ـ ادب المجتمع الاشتراكي ـ يقوم ببناء الشعب تحت قيادة الحزب .

الثقافة العظيمة للادب الكلاسيكي

ومع هذا فالادب السوفياتي ما زال يواصل تطوير أحسن ما في التقاليد الروسية ، والادب الكلاسيكي العالمي . وقد كان فلاديمير ايليتش لينين ينبه باستمرار الى أن بناء ثقافة المجتمع الاشتراكي يمكن ان يقوم على جهود المتخصصين وحدهم ، بمواصلة الاعمال النقدية ، بغية الوصول الى مستوى الثقافة القديمة .

ففي حديثه في المؤتمر الثالث لاتحاد الشبيبة ، المنعقد في الثاني من اكتوبر عام ١٩٢٠ قال : « اننا بدون ان نفهم فهما واضحا ان المعرفة الدقيقة للثقافة هي التي أبدعت جميع التطورات الانسانية ، وان التفوق وحده هو الذي يمكن من قيام ثقافة الطبقة العاملة ـ بدون هذا الفهم الواعي ، فان المشكلات لن تنتهي » .

والادب السوفياتي وريث شرعي لكل ما هو أوثق وأجمل من الابداع القائم في نطاق ثقافة الشعب الروسي والشعوب الاخرى في الاتحاد السوفياتي ، وهو قبل كل شيء يقتفي اثر التقاليد التقدمية للادب الروسي الكلاسيكي .

ولقد تميز الادب الروسي التقدمي دائما بالديمقراطية ، والنزعة الشعبية ، والارتباط بالدفاع عن الحرية لجماهير الشعب .

فالادب الروسي الكلاسيكي يستوحي الثقافات القديمة ، وطبيعته انسانية عميقة ، وهدفه تحرير الشعب المضطهد ، يقول غوركي : « ان طبائع السورات الروحية تتوهج في هذا المعبد الرائع القائم على السرعة الخرافية حتى اليوم ، باشراق العقول الجميلة القوية العظيمة ـ عقول وقلوب الفنانين الحقيقيين ، وكل منهم معروف بالحقيقة والشرف ، ومفهوم بوضوح ، وذو تأثير كبير ، وهم يقولون : ان معبد الفن الروسي قائم على المعونة الصامتة من الشعب ، فالشعب هو الذي ألهمنا أن نحبه » .

ولقد كان الكتاب الروس التقدميون ناقمين ، يناضلون بلا هوادة ضد الفن الخالي من المضمون ، المعادي للشعب ، وضد النظرية الرجعية « الفن للفن » .

ويرى بوشكين أن حقيقة أفكاره ماثلة في انه أيقظ بقيثارته « الشعور بالخير » و « تمجيد الحرية » .

ووازن ليرمونتوف بين الشعر وبين « الناقوس الابدي » الذي يدوي في « أيام الاعياد والكوارث الشعبية » .

وسمى نيكراسوف أشعاره « عروس الشعر والاحزان » .

وكان من أولئك المبشرين بالفن ذي المبادىء الفكرية السامية من اجل الشعب ـ بيلينيسكي ، ودوبروليوبوف ، وشورنيشفسكي .

وللادب الروسي التقدمي خاصية السعي المباشر نحو حقيقة الحياة ، والكشف بلا هوادة عن مثالب النظام الاستغلالي ، وهو مع ابداعه لصور البطولات الايجابية الرائعة ، يملك قدرة فائقة على التهذيب .

ولقد جسد غريبويودوف ، وبوشكين ، وليرمونتوف ، وغوغول ، وتورغينيف ، ونيكراسوف ، وتشورنيشفسكي ، وتولستوي ـ جسدوا في أعمالهم أقوى ملامح الشخصية القومية الروسية .

والكلاسيكيون الروس من أعظم أساتذة الشكل الفني واللغة ، وقد لعبوا دورا هاما في تطوير اللغة الروسية بوجه خاص ، هذه اللغة القوية الجميلة التي اعتز بها لينين ، اذ كتب يقول : لغة تورغنيف ، وتولستوي ، ودوبروليوبوف ، وتشورنيشفسكي ـ لغة عظيمة وقوية » .

والانسانية ، والشعبية ، والواقعية ، والحماسة الوطنية العالية ، والمهارة الفائقة ـ كل هذه الملامح الجميلة الهامة للادب الروسي الكلاسيكي ، أحدثت تطورا بعيد الاثر في ابداع الكتاب السوفيات المجيدين .

فقد تعلموا اتقان التحليل النفسي ، والتغلغل بعمق في جوهر الحياة ، والحقائق الفنية ، وكمال الصياغة ، والجمال ، والوضوح ، والدقة في استخدام اللغة ـ تعلموا ذلك من غوغول ، وتورغينيف ، وتولستوي ، وتشيخوف ، كما أخذوا القوة ، والثراء ، وبلاغة الشعر عن بوشكين ، وليرمونتوف ، ونيكراسوف .

وقد تجلى ذلك في الاساليب الرفيعة للشعراء السوفيات .

والى جانب تقاليد الادب الكلاسيكي ، ورث الادب السوفياتي أحسن ما وصل اليه الادب الشعبي المروي على الشفاه .

ومهما يكن ، فان الملامح التقدمية المستمرة التطور في الادب الكلاسيكي ، والابداع الشعبي في الادب ـ كما سبق القول ـ تقدم كلمة جديدة في تطوير الفن الانساني .

واذن فما هي الخطوط والمعالم المتنوعة للادب السوفياتي ؟

لينين يتحدث عن أدب المجتمع الاشتراكي

في عام ١٩٠٥ كتب لينين مقالا رائعا عن « المنظمة الحزبية والادب الحزبي » حدد فيه المبادىء الاساسية للادب ، وارتباطه بالدفاع عن الاشتراكية .

في هذا المقال تابع لينين ابراز الاوضاع المستقبلة ، واعتماد أعلى تعاليم ماركس ، وتطويرا لهذه التعاليم فضح لينين المزاعم الكاذبة التي تقول بامكان قيام « الفن النظيف » ـ أدب الطبقة اللاحزبية العليا في ظروف النظام البورجوازي .

ولقد أوضح ان ثرثرة النقاد والادباء البورجوازيين حول « الحرية والفن اللاحزبي » تكشف عن علاقة الفن والادب باهتمام البورجوازية ،

(*) بقلم الكسندر ديميانتيف

« فحرية الكاتب ، والفنان ، والممثل البورجوازي حرية مقنعة فحسب ، وهي مغلفة بالنفاق ، خاضعه لاكياس النقود ، والاعالة ، والرشوة ، والمكافأة » .

وعن علاقة الادب ـ الظاهرة او الخفية ـ بالبورجوازية ناقش لينين الادب وعلاقته المفتوحة بثورة الطبقة العاملة في طور انتشار النضال الثوري للطبقة العاملة ، وبحل حده كان يبرز السؤال عن الادب وعن دوره ، وعن خطوره .

وفي هذا المقال أكد لينين ان الادب يجب آن يصير جزءا من كفاح مجموع الشعب من اجل الاشتراكيه ، وجزءا مهما لعمل الحزب : « فالعمل الادبي يجب ان يصير جزءا من عمل الطبقة العاملة « كالعجلة والمسمار » فهما الواحد الصحيح ، أي الكل الذي لا ينجزآ فيميكانيكيه الديمقراطية الاشتراكية العظيمة ، المؤدية الى تحريك جميع القوى الطليعيه الواعيه لمجموع الطبقة العاملة .

والعمل الادبي يجب ان يكون جزءاً متمماً للعمل الحزبي المنظم المخطط للحزب الديمقراطي الموحد » .

وهذا الارتباط بين النضال الثوري للطبقة العاملة وبين الادب يفتح امام الفن المعاصر مسالك جديدة لم يسبق لها مثيل .

ولقد اشار لينين الى ان منابع الالهام العميقه الثرية تنصب في نضال جماهير الشعب من اجل الاشتراكيه ، وعن هذه العلاقة تحدث لينين بقوة ايمان خارقة عن مستقبل الادب من اجل الشعب ، عن الادب الذي يدعو الى حياة الثورة الاشتراكية المنتصرة .

والخواص الاساسية لهذا الادب هي : الحرية الحقيقية ، والشعبية ، والفكرة الاشتراكية .

« انه سوف يكون ادبا حرا ، لانه ليس جشعا ، ولا حرفة ، ولكنه فكرة الاشتراكية ، وشعور الكادحين بانه سيجند القوى الجديدة الجديدة في صفوفهم ، انه سوف يكون ادبا حرا ، لانه سيستخدم لا لاشباع نزعة انبطولة ، ولا لسمجيد الاشخاص المترفين الذين يعانون البدانة المفرطة ، « وهم لا يزيدون على عشرات الالوف » ولكن للملايين وعشرات الملايين ، الذين يؤلفون زهره الوطن ، وقوته ، ومستقبله » .

واقرارا بأن رسالة الادب هي آن يصير جزءا متمما للعمل الاجتماعي للحزب ـ أشار لينين الى ان الحزب في سياسته تجاه الادب ، يجب آن يأخذ بعين الاعتبار جميع الخصائص الفردية ، وجميع المكونات المركبة للابداع الادبي ، وأشار كذلك الى ان العمل الادبي يمنح على الاقل المساواة الآلية لجميع المستويات ، ويحقق سيادة الاغلبية على الاقلية ، وانه من الضروري ـ بدون تحفظ ـ توفير الفرص الكبيرة للمبادآة الشخصية ، والمواهب الفردية ، وفرص التكافؤ بين الفكر والخيال ، والشكل والمضمون .

هذه هي أهم الموضوعات الاساسية التي عالجها مقال لينين ، ولقد استمد الحزب سياسته في مجال الادب من المبادىء اللينينية ، وما زال يطورها باستمرار .

فقد قاوم الحزب ضد تحريف المبادىء ، وطالب بأن تراعى الظروف التاريخية الجديدة التي نشأت في البلاد بعد الثورة ، وبخاصة شيوع آراء لينين التي عبرت لدى بعض النقاد عن التناقض بين الكتاب الشيوعيين والكتاب السوفيات اللاحزبيين .

وهذا التناقض خاطىء وضار ، لان الحزبيين واللاحزبيين يؤدون في الدولة عملا اجتماعيا واحدا .

وتحدد آراء لينين طريق تطور الادب في المجتمع الاشتراكي ـ الادب الذي لا يستخدم من اجل الفرد الممتاز ، ولكن من اجل جماهير الشعب الواسعة ، ويشيع نور الاشتراكية العلمية في كل جوانب الحياة .

ولقد تحددت بعض خصائص هذا الادب فيما قبل الثورة ، وخاصة في اعمال غوركي ، حتى صار من الممكن ـ بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظيمة ـ فتح الطريق نحو أدب جديد تماما ، وحر تماما .

ففي عام ١٩٣٤ ، وفي المؤتمر العام الاول للكتاب السوفيات ، تقدم جدانوف باسم اللجنة المركزية للحزب ، وأشار بشعور الفخر والاعتزاز الى أن انتاجنا الادبي لم يكن في عصر من عصور التاريخ الانساني كما هو الان ، ثم أجمل ملامح الادب السوفياتي في : المضمون الجديد ، والموضوعات البطولية الجديدة ، والفكرة الشيوعية ، وطريقة الابداع الجديده ، وطابع الحماس القومي المتدفق .

المضمون الجديد للادب السوفياتي

الادب السوفياتي يعكس الواقع الاشتراكي ، ونضال الشعب السوفياتي من اجل المبادىء الشيوعية . ولهذا يصبح من الطبيعي ان يكون جديدا في المضمون ، ففي انتاج الكتاب السوفيات يتضح كيف ان الشعب تحت قيادة الحزب قد حقق المعجزة في عالم الثورة ، ودعم الوطنية الاشتراكية ، وحمى مكاسب اكتوبر من الدخلاء ، ومن الحرس الابيض في سني الحرب الاهلية ، وأحال روسيا المتخلفة دائما الى دولة صناعية زراعية اشتراكية جبارة ، وأحرز النصر في الحرب العظمى ضد المانيا الهتلرية .

ويشهد الادب السوفياتي كيف ان الشعب انبطل تحت قيادة الحزب يبني الشيوعية ، وكيف انه في طليعة جميع شعوب البشرية المتقدمة يقود النضال من اجل السلام . وهذا المضمون لم يعرفه الادب في العصور الغابرة .

لكن الادب السوفياتي يبدو جديدا في الموضوع والشخصيات ، فالكادحون السوفيات البسطاء ـ العمال ، والفلاحون ، والمثقفون ، وبناة الشيوعية ـ هؤلاء يمثلون الشخصيات الرئيسية في مؤلفات الكتاب .

ولقد كتب كاتبنين عن الخواص الاساسية للادب السوفياتي يقول : « شخصيات انتاجنا الادبي هم ذوو الفاعلية في بناء الحياة الجديدة ـ العمال ، والعاملات ، والفلاحون ، واعضاء الحزب ، والمهندسون ، والسنيبية ، والطلائع ، والاقتصاديون . وموضوع انتاجنا هو العمل الابداعي الخلاق لشعوب بلادنا » .

في أدب ما قبل الثورة صور أناس من الشعب ، ولكن هؤلاء الناس ظهروا هناك أساسا في صورة المسخرين التعساء . أما في الادب السوفياتي فالانسان البسيط ـ الكادح ، والعامل ، والفلاح ـ هو الذي يعمل سيدا للحياة ، ومبدعا لعالم جديد .

هذا التصوير للناس البسطاء منحه غوركي للادب العالمي في بداية الامر ، وعلى طريق غوركي سار الكتاب السوفيات .

فالقارىء يلتقي في مؤلفات الكتاب السوفيات بالمساهمين في الحرب الاهلية ـ شاباييف ، وبافلوف كورتشاجين ـ وبمعال من « تسيميتت » ذ. جلادكوف ، ومزارعي شولوخوف ، والمحارب السوفياتي « تسيميتت » ف. جلادكوف ، ومزارعي شولوخوف ، والمحارب السوفياتي فاسيلي تيركين ، وأبطال « الحارس الشاب » ، وبالمهندسين الشيوعيين فاسيلي تيركين ، وابطال « الحرس الفتي » ، وبالمهندسين الشيوعيين في رواية ف. أجاييف « بعيدا عن موسكو » .

ولا يستنتج من هذا العرض ان الادب السوفياتي يسجل حياتنا الراهنة فحسب ، ولكنه يسترجع الماضي ، فالكتاب السوفيات يفتحون جبهات جديدة للحقائق : كالتناقضات الطبقية ، ونضال الشعب ، ودوره الحاسم في التاريخ ، والقوانين وميادين التطور الاجتماعي .

وهذا يوجد بوجه خاص في مؤلفات كثيرة ، منها على سبيل المثال : رواية « بطرس الاول » لاليكسي تولستوي ، ومؤلفي الواقعية الاشتراكية .

وهذه الصورة واحدة من الخصائص الرئيسية للادب السوفياتي التي تنكون من ان لديه مضمونا جديدا ، وموضوعات جديدة ، وشخصيات جديدة .

حزبية الادب السوفياتي

الواقع السوفياتي حدد العقيدة الجديدة للكتاب وأفكارهم

وحزبيتهم ، فهم يضعون في اساس الادب السوفياتي افكار الاشتراكية العلمية ، والتعاليم الماركسية اللينينية ، والرفض الحاسم للنظام الاستغلالي ، والاقتناع بأن الاشتراكية تخلق كل الظروف الملائمة للحرية ، والحياة السعيدة ـ هذا ما يميز عقيدة الكتاب السوفيات ، فالادب السوفياتي ينظر في ماضي الانسانية ، وحاضرها ، ومستقبلها بوجهة نظر العقيدة الماركسية ـ اللينينية .

وقد قال جدانوف في المؤتمر الاول للكتاب السوفيات : « ان أدبنا يبدو اكثر حداثة من جميع الاداب في جميع الشعوب والاقطار ، ومع ذلك فهو يبدو اكثر الاداب فكرا ، وأكثرها تقدمية ، واكثرها ثورية . وليس هناك على الاطلاق ادب ـ باستثناء الادب السوفياتي ـ استطاع أن ينضم الى صفوف الكادحين والمضطهدين للنضال من اجل القضاء المبرم على جميع أنواع الاستغلال ، والتخلص من نير العبودية الاجيرة . وليس هناك على الاطلاق أدب جعل حياة الطبقة العاملة والفلاحين ونضالهم في سبيل الاشتراكية موضوعا اساسيا لانتاجه .

ولم يوجد في أي مكان من بلاد العالم أدب دافع عن المساواة بين جميع الكادحين من ابناء الامة ، وحمى حق المرأة في المساواة .

بلى ، لم يكن ممكنا أن يقوم في البلاد البورجوازية ذلك الادب الذي سحق كلا من أعداء الثقافة والعلم ، والفيبيين ، والمشعوذين ، والاشرار على التوالي بمثل ما يفعل أدبنا » .

والفكرة الشيوعية في الادب السوفياتي غير منفصلة عن الوطنية السوفياتية ، ففكرة الوطنية ، وفكرة الحب لارض الوطن السوفياتي ، والشعور بالاخلاص للاشتراكية ـ تحمس الكتاب السوفيات ، وتحدد خصائص انتاجهم .

ولقد عرض الكتاب السوفيات في كثير من انتاجهم ضخامة القوة الهائلة لنتائج الوعي الثوري لدى الجماهير ، والشعور بقداسة الوطنية السوفياتية .

وحب الوطن للوطن وللشعب يصاغ لدى الكتاب السوفيات في مشاعر الحب والولاء للحزب الشيوعي . وزعيم الحزب العظيم لينين يتقدم الى الادب السوفياتي ، والى العلاقة الدائمة بالحزب وبالشعب ، كمعبر عن الاشواق وعن المثل العليا لجماهير الشعب .

والادب السوفياتي هو أدب الطبقة المنتصرة ، أدب الطبقة التي تنتمي الى المستقبل ، ومن هنا كان تفاؤلها وطابعها الحيوي .

والطابع التفاؤلي للادب السوفياتي لا يعني تماما انه لا يتناول الجوانب الكدرة والحزينة ، فان فورمانوف في روايته يتحدث عن موت البطل الشعبي المجيد فاسيلي ايفانوفتش تشاباييف .

وعن الالام الجسمانية المبرحة لبافيل كورتشاجين يقود نيكولاي اوستروفسكي القارىء في رواية « والفولاذ سقيناه » . ورواية فادييف « الحارس الشاب » تنتهي بموت معظم شباب الحرس ، وليس في واحد من هذه المؤلفات ظل من اليأس أو التشاؤم .

حدث هذا لان فادييف وفورمانوف وأوستروفسكي مقتنعون بأن النضال الشاق العظيم من أجل المجتمع الجديد لا يتم بدون تضحيات ، ولكن هذه التضحيات عائدة باسم الهدف المضيء النبيل ، انهم يجدون تبريرهم ومقصدهم في هذه الاهداف العظيمة النبيلة ، والدم المسفوك ليس هدرا ، ولكنه مراق باسم المبادىء التي تنقلب ، ثم تنتصر في النهاية .

وعبر تاريخ الادب السوفياتي كله ، يمتد خيط أحمر مفعما بالطاقة ، لا يعييه النضال من اجل السلام ضد مسعري الحروب .

ففي مقالات غوركي ومقطوعاته قبل الثورة ، دمغ بالعار مقاصد السيطرة العالمية التي فرضها اصحاب الملايين الاميركيون .

وفي سلسلة الاشعار عما وراء الحدود ، كشف مايا كوفسكي الجوهر الحقيقي للاستعمار العالمي .

وجريا على تقاليد غوركي ومايا كوفسكي ، فان الكتاب السوفيات في مؤلفاتهم الملهمة للانسانية الحقيقية يفضحون مشعلي الحروب ، ويدعون الى السلام لجميع العالم ، ويناضلون من اجل السعادة لجميع العاملين من أبناء البشرية .

الواقعية الاشتراكية وطريقة الابداع في الادب السوفياتي

الصفات الجديدة للادب السوفياتي تتجلى في نفس الطريقة ، وفي اسلوب تصوير الحقائق . فبالطريقة الفنية للادب السوفياتي ، وبالنقد الادبي تكون الواقعية الاشتراكية .

ولكن ما هو جوهر الواقعية الاشتراكية ؟

الواقعية الاشتراكية تتطلب من الفنان تصويرا تاريخيا صادقا محددا للحقائق في تطورها الثوري .

ومع هذا فالصدق ، والتحديد التاريخي ، والتصوير الفني للواقع ، يجب أن تتسق مع هدف تربية الكادحين بروح المبادىء .

ان كتابة الحقيقة أسمى مطالب الواقعية الاشتراكية .

وقوة الادب الكلاسيكي تتجلى في صدقه ، وسموه ، وشرف مواطنيه ، والنماذج الحرة ، والشخصيات الايجابية ، وعلى هذه التقاليد الجيدة يسير الادب السوفياتي .

لكن الادب الكلاسيكي فيما قبل الثورة رأى هدفه الرئيسي في ان يناضل ضد النظام الاستغلالي ، وضد الحكم الفردي ، وضد حكم القوة .

ومن هنا كان الطابع النقدي لواقعية الادب قبل الثورة ، وباسم تحرير الشعب ، وانتصار المثل العليا للعدالة والمساواة ، فضح راديشيف ، وبوشكين ، وغوغول ، ونيكراسوف ، وشورنيشفسكي ، وسالتيكوف شيدري ، وأوستروفسكي ، ونواستوي ، وتشيخوف ـ فضحوا بالقوة الهائلة للفن الحق ، قوى الاستعباد ، واستغلال البورجوازية ، والمخازي ، وتناقضات الحكم الاستبدادي في روسيا .

اما الواقعية الاشتراكية فترى هدفها الاساسي في تأكيد وتعزيز العلاقات الاشتراكية الجديدة ، وفي النضال الايجابي الفعال من اجل الشيوعية .

انها ناتجة في اساس المجتمع الذي ليس فيه استغلال ، ولا ملكية فردية لادوات الانتاج ووسائله .

وبهذا تكون الشخصية الرئيسية لادبنا هي الشخصية الايجابية . فليفنسون ، وميتيليتسا في («الهزيمة» لفادييف) ، وتشاباييف ، وكليشكوف في («تشاباييف» لفورمانوف) ، وبافيل كورتشاجين في (« والفولاذ سقيناه » لاوستروفسكي) ، ودافيدوف في (« استصلاح الارض العذراء » لشولوخوف) ، وشخصيات (« الحارس الشاب » لفادييف) ـ كل منهم تميز بصفاته المتفردة ، وأحيانا ببعض صفات الضعف ، ولكنهم جميعا شخصيات ايجابية ، تعتبر نموذجا لسلوك الانسان السوفياتي .

ولا شك في ان الواقعية الاشتراكية تنضح لا في تصوير الظواهر الايجابية فحسب ، بل يدخل فيها تأكيد العلاقات الاشتراكية الجديدة ، والنقد الجريء القائم على المبادىء لعيوبنا ، والنضال الفعال ضد ظواهرنا السلبية والعدوانية ، وفضح كل المزيفين ، وكل المفسدين في حياتنا .

والفنان وحده محلل للوقائع في ضوء الاشتراكية العلمية ، يستطيع بقوة لا تعرف الهوادة ان يبرز حتمية انحلال البورجوازية تاريخيا ، وفشل الشخصية البورجوازية ، كما فعل غوركي في « مآر ارتامونوف » وفي « حياة كليم سامجين » .

وبموقفه من المبادىء الشيوعية وحدها أمكنه أن يسخر هكذا من رواسب الطبقية والبيروقراطية في مجتمعنا ، كما فعل مايا كوفسكي في مسرحيات « كلوب » و « بانيا » وأشعار الهجاء .

والواقعية الاشتراكية تتطلب من الكتاب مقدرة على ان يكتشفوا الحياة في حركتها وفي تطورها ، الا ان كل حركة وكل تطور ، يولد

نضالا جديدا مع القديم ، وانتصارا جديدا على القديم .

والادب السوفياتي يوضح كيف يتطور النضال مع القديم ، ويحقق انتصارات جديدة .

ومع هذا فالمقدرة على عرض الحياة في تطورها وفي حركتهـــا تستلزم قدرة الفنان على أن يرى الاتجاه الذي تتطور فيه الحيـــاة ، وان يرى نمو الجديد .

والسبب في تطور الادب السوفياتي بهذا الاتساع في جميـــع مراحله ، هو انه استغل موضوع المستقبل الشيوعي .

فالادب السوفياتي الواقعي يعكس واقعنا ، ويكشف عن شخصيته، ويطلق أضواء على العقيدة الشيوعية على كل ظاهرة من ظواهر الحياة، وبهذه الخاصية تضع الواقعية الاشتراكية ضمن معالمها الرومانتيكيـة الثورية الجديدة .

ومن الواضح تماما أن هذه الرومانتيكية الثـورية ليست تكرارا سهلا للتقاليد الرومانتيكية السالفة ، ولكنها رومانتيكية جديدة ، يتحدد جوهرها في أنها لا تصور حياة غير موجودة ، ولا شخصيات غير كائنة ، ولا تحمل القارىء الى عالم من المثالية غير قابل للتحقيق ، ولا تنـاقض الحياة الحقيقية ، بل تعبر عن البطولة ، ومجالات المستقبل ، وميادين النضال الحقيقي لثورية الطبقة الكادحة التي يقودها الحزب من اجـل بناء المجتمع الشيوعي .

فالرومانتيكية الثورية للادب السوفياتي غير مقطوعة الصـــلة بالحياة الحقيقية .

وقد نوه بذلك جدانوف حيث قال : « نحن نقـول أن الواقعيـة الاشتراكية تتجلى في الطريقة الفنية الاساسية للادب السوفيـــاتي ، والنقد الادبي ، وهذا يسلمنا الى ان الرومانتيكيـــة الثورية يجب ان تدخل في الابداع الادبي كجزء من مكوناته ، لان حياة كل حزبنا ، وحياة كل الطبقة العاملة وبضالها ـ يتحدد في تنسيق ميادين العمل الشاق جدا ، والرزين جدا ، مع البطولة العظيمة وآفاقها الواسعة .

والواقعية الاشتراكية تنبع من الفهم العميق لسير أحداث الحياة . وطريقة ابداعها معادية للخيالية التي لا هدف لها ، وللطبيعية التـي لا ترى شيئا مستقلا عن الوقائع ، انها تتطلب استنتاجات عامة واسعة ، والاستنتاج في الادب يعبر عنه في كتابات ، والكاتب يختار هذه النماذج او اية حقائق أخرى ، ويجمعها ، وينتقي منها واحدة ، ويطرح الاخريات، والكلمات الاخرى يعممها ، ويكنى بها عن المطابقة لحقائق الحياة .

والكاتب السوفياتي مناضل تشيط من اجـل بناء عالم جديد ، والكلمة الفنية تلعب في مجتمعنا دورا هائلا ونشيطا ورائدا .

والكاتب عندنا يؤدي أهم الواجبات ، انه يستطيع ان يساعـد الانسان ان ينمو روحيا .

والواقعية الاشتراكية تفتح مجالا واسعا للابحاث الابتداعية المتنوعة للكتاب ، وهي تسلم بالثراء ، واختلاف الصور ، والاساليب ، والانماط، والمناهج ، والاشكال الفنية .

ولا شك ان الواقعية الاشتراكية متصلة بأسلافها ، وقبل كل شيء بالادب الروسي .

واذا تحدثنا عن الكتاب الروس في القرن التاسع عشر ، وعـن أعمالهم التي مهدت لادبنا المعاصر ، فيجب ان نذكر هنا ما فيه الكفاية عن تشورنيشفسكي زعيم التفاؤلية التاريخية للديمقراطية الثوريـة ، ومقدمته الاولى لتخطيط الشخصيات الايجابية في رواية « ماذا نصنع؟ » والتنسيق في طريقته الابداعية لحقائق الحياة ، وأحـــلام المستقبل ، والثقة العميقة في تحقيق هـــذا المستقبل ـ كل هذا الذي يصنعه تشورنيشفسكي واحدة من أهم سوابق الواقعية الاشتراكية .

ولكننا حينما نتحدث عن الاصول التاريخية ، وجـــوهر الادب السوفياتي ، يجب علينا أن نشير بقوة الى هذه الفكرة ، وهي أن ادبنا ادب ابتداعي جديد في عمقه الشديد ، وعالمية دلالة كلماته : في المضمون، والعقيدة ، وطريقته الاساسية في التجارب الثورية ، وتجارب البنـاء الاشتراكي ، وفي آرائه العلمية الشيوعية .

الأدب السوفياتي قومي الشكـــل ، اشتراكي المضمون

الادب السوفياتي أشتراكي المضمون ، متعدد بتعدد القوميات فـي صياغته ، وهذه خاصية من أهم خصائصه .

فلقد أعلن غوركي في المؤتمر الاول للكتاب السوفيات : « أن الادب السوفياتي ليس أدب اللغة الروسية وحدها ، بل هو أدب الاتحـــاد السوفياتي بأجمعه » .

ولقد كان الانتصار الضخم لثورة اكتوبر الاشتراكيـة العظيمة ان جميع شعوب روسيا القيصرية المضطهدة المقهورة ، تحررت ، وخطت في طريق البناء الاشتراكي ، والحياة الثقافية والسياسية النشيطة .

والادب السوفياتي الموحد للجامعة الاشتراكية بمضمونه ، مختلف في شكله القومي ، فالشكل القومي يتحدد في ان الادب يصدر باللغـة التي يفهمها جماهير الشعب الواسعة ، والتي وجـــدت فيه انعكاسا لاحسن تقاليدها القومية ، والخواص النفسية لعقلية الامة ، ولكنه مع اختلاف جميع خصائص الصياغة ، فان الادب السوفياتي موحد فـي داخل اتجاهاته الفكرية .

فالسياسة القومية للحزب قـادت الى ازدهار آدب الجمهوريات الشقيقة ، وانتاج أحسن الكتاب في الشعوب الشقيقة مشهور في جميع انحاء الاتحاد السوفياتي ، داخل في الحصيلة العامة لثقافته .

فمسرحيات الكاتب المسرحي كورنيتشوك ، والشاعر الاذربيجـاني سامید فورجون ، وأشعار تيتشينا (أوكرانيا) ، ويانكا كوبالا (روسيا البيضاء) ، وتابيدز (جورجيا) ، وجامبول (كازاخستا) ، وسوليمان ستالسكي (داغستان) ، وروايـــات آينا (طاجكستان) واويزوف (كازاخستان) ولاتسيس ، وأوبيت (لاتفيا) ، ومؤلفات أخرى كثيرة ، تبدو رائعة النجاح في الادب السوفياتي المتعدد الجنسيات .

والادب السوفياتي يقدم نموذجه الرائع ، المبدع لوحدة الشعوب ، في العمل العظيم لايجاد ثقافة اشتراكية جديدة .

وقد سمى بافلو تيتشينا شاعر اوكرانيا المعروف أشعاره باســم « الشعـور بالاسرة الواحدة » ، وخصصها لصـــداقة شعوب الاتحاد السوفياتي ووحدة آدابهم .

والتطور السريع لترجمة انتاج الكتاب الاشقاء الى اللغة الروسية، وانتاج الكتاب الروس الى لغات شعوب الاتحاد السوفياتي ، وأعيـــاد الذكرى لبوشكين ، وشيفتشينكو ، وروستافيلي ، وأعياد آداب القوميات وفنونها في موسكو ـ كل هذا ساعد مساعدة جدية على نمو آداب جميع شعوب الاتحاد السوفياتي .

ولقد عنى الحزب ـ بمختلف الوسائل ـ بتطوير الثقافة والادب لشعوب الاتحاد السوفياتي ، وهو في نفس الوقت يناضل بحزم ضـد جميع مظاهر القومية البورجوازية في الجمهوريات الشقيقة ، وضـد كل محاولة لتمزيق الثقافة والادب ، وعزل شعوب الاتحاد السوفياتي عن عمومية الثقافة والادب السوفياتية الشاملة ، وعن تقدمية الثقافة والادب فـــي روسيـــا .

فـــي البحـــرين

تطلب « الآداب » وكتب « دار الآداب »

مـــن

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبـــي

والدور القيادي في تطوير أدب القوميات السوفيانية يلعبه الادب الروسي ، فقد استخدم نفوذه الضخم في تطـــوير آداب الشعـوب الشقيقة ، وفـي تكوينها ، ولا سيما الاهميـــة الكبيرة لانتاج غوركي ومایاکوفسكي .

وكتاب الاداب الشقيقة يقدرون الادب الـــروسي السوفياتي ، ويحبونه بحرارة . فقد كتب المؤلف المسرحي الاستـــوني المعروف ، أوغيست ياكوبسون : « أنني اذكر كم كانت عميقة على الدوام تذكارات الاعياد ، وكيف كانت بالنسبة لي قراءة « الدون الهـادىء » لميخائيل شولوخوف ، و « تسيمينت » لفيدور جلادكوف ، والكتاب الخـالد لنيكولاي اوستروفسكي ، وأشعار مایاکوفسكي ، وعلى الاخص انتـــاج ما بعد اكتوبر ، والمقالات الملهمة لمكسيم غوركي » .

الحزب الشيـــوعي منظم وقائـد لـلادب السوفيـاتي

النجاح الذي أحرزه الادب السوفياتي في وظائفه العديـــدة كان بتوجيه الحزب الشيوعي وقيادته .

وفي جميع المراحل الاساسية لتاريخ حزبنا أوضـــح الخصائص والمميزات لاهداف الانتاج الجديد ، القائمة امـام الكتاب السوفيات ، ووجه واقعها ، وأبدى أعظم العناية بازدهار الادب السوفياتي .

فأية خطوط عامة تحدد سياسة الحزب بالنسبة للادب ؟

لقد نبه الحزب باستمرار الى ان في خدمة الشعب وحده ، وفي مبادىء الشيوعية ، وفي العلاقة الوثيقة بين الاهداف السياسية وبين الحياة ـ يمكن ان يجد الكاتب السوفياتي المنابع الحقيقية للالهـــام الخلاق : « ثورة الادب السوفياتي ، اكثر الاداب تقدمية في العـــالم ـ كما يعلمنا الحزب ـ تكمن في أنها تدل على الادب الذي يمكن ان تكون له اهتمامات اخرى سوى اهتماماته بالشعب ، واهتماماته بالدولة .

انه يساعد الدولة على ان تربي الشباب تربيـــة صحيحة ، وأن تجيب على أسئلته ، وان تربي جيلا جديدا نشيطا ، واثقا في عمـله ، غير هياب من العراقيل ، مستعـــدا ان يتغلب على كل العقبات » . هكـذا يقول تقرير اللجنة المركزية للحزب .

وفي أساس سياسة الحزب لادب الاقاليم يضع مبدأ التربيـــة الشيوعية للكتاب ، فالحزب يعمل بحزم دائما ضـــد تيارات الاداب والفنون البورجوازية ، وضد اللافكرية ، واخلاف السياسات في الادب ، ومع ذلك فهو يساعد الكتاب بعناية ولباقة على ان يتحرروا من الاخطاء ، ومن الانحرافات ، ويوجه ابداعهم نحو الطريق الصحيح .

والمبادىء الفكرية العالية ، وحقائق الحياة الصحيحة ، تسجـل في وثائق المناهج الحزبية الخاصة بقضايا الادب ، مع تأكيد المهـــارة الفنية الكاملة . ولقد جاء في توجيهات اللجنة المركزية للحزب فـــي المؤتمر الثاني للكتاب السوفيات :

« والحزب يدعو الكتاب الى الاقدام الابداعي الجريء ، والـــى الثراء ، والى التطوير البعيد لكل فكرة ، ولكل أســـلوب في الادب ، والى رفع مستوى المهارة الفنية مع ذلك ، من اجل أن يصل الى الدرجة المحققة لجميع المطالب الروحية النامية للقارىء السوفياتي » .

والكتاب السوفيات يرون في قيادة الحزب الموجهة ضمانا أساسيا لنجاحهم ، ولقد وازنوا بين شعار البورجوازية الكاذب : « استقلال » الادب عن المجتمع ، و « الفن للفن » وبين الافكار الشيوعية ، وخدمة الادب للشعب والعمل الشيوعي السامي . وقد اعلن شولوخوف وهـو يتقدم للمؤتمر الثاني للكتاب السوفيات : « فيما يختص بنا ـ نحـن الكتاب السوفيات ـ فنحن نافمون على الاعداء الذين يتحدثون عنـــا كما لو كنا نكتب بمرسوم من الحزب ، ولكن الامر يجري بصورة مختلفة بعض الشيء : فكل منا يكتب بوحي من قلبه ، وقلوبنا ملك للحـــزب وللشعب الذي نقف حياتنا عى خدمة فنه » .

ترجمها عن الروسيـــة **رضوان ابراهيم**

صدر حديثا عن دار الاداب :

المعقول واللامعقول في الأدب الحديث

تأليف كـولن ولسون

ترجمة انيس زكي حسن

دراسات هامة رائعة عن تيارات الفكر الحديث في الادب والفن ، بقلم كاتب مـــن اشهر كتاب العصـر

الثمن ٤٥٠ ق. ل